فعمدت إلى وسيلة أخرى .. فقد كنت آخذ معي بعض الحلوى وأعطيها إياها من وراء ظهري ، وأنا أجري بجانب خادمتي ، فتأخذها مني .

وكثيراً ما كنت ألفت نظر ميلي، الى شعرها المنتفش وأزرار ثوبها المنزوعة ، ناصحةً إياها بالنظافة والترتيب . فتهز رأسها ويتولاها الخجل . ثم تظهر أمامي في اليوم التالي وقد زاد اتساخها ، إن الحياة التي كانت تتبعها ميلي ، كان من الصعب معها ان تكون مرتبة الهندام .. فأنها مهملة من أهلها ، تقضي أوقاتاً طويلة إما في العراك مع صبية الشوارع .. وإما في الركض في الحقول ، وتسلق الأشجار . أي انها شبه حيوان أليف . ولم تكن تعرف القراءة ، لأنها لم تتردد على المدرسة . ولكنها كانت تعرف الحشائش ، وما ينفع منها للزكام ، وما يشفي الأوجاع ، وما يلئم الجرح سريعاً . فكانت تجلب منها الكثير للمطبخ عندنا .. كما تجلب الجرجير والهندبا البرية ، وطاقات البنفسج الكبيرة ، والخشخاش وزهر اللؤلؤ .

كانت تنتحل شتى الأسباب لكي تدخل الى القصر .. فتحوم حول المطبخ تتسقط الأوامر ، وتنفذها في لمح البصر . ولكنها لا تنصرف بعد ذلك ، بل تبقى مختبئة في بعض الأركان ، وتتسلل باحثة عني . فاذا اهتدت اليّ في الحديقة ، أظهرت لي نفسها من بعيد ، ولكن في خجل . فأشير إليها أن تتقرب .. وعندها تسرع اليّ والفرح يشعّ في عينيها ، وهي تقول : « آوه ! يا آنسة ! يا آنسة ! ... »

ونجلس على مقعد تحت تعريشة العنب ، حيث نبقى هناك مختبئتين ، نتكلم ونلعب كما يحلو لنا . كانت ميلي فتاة بارعة ، فعلمتني كيف تصنع التيجان من مختلف الأزهار . كما كانت تأخذ مني قصاصات الأقمشة والشرائط وتصنع لي منها العرائس الجميلة التي كنت أراها تضاهي ما تبيعه المحلات الكبيرة ، في هندامها الجميل .

ومن المدهش ، ان ميلي تلك الفتاة الفقيرة ، لم يكن يطيب لها أن تأكل في بيتها أكلة لذيذة ، دون أن تأتيني بنصيبي منها ملفوفاً في ورقة نظيفة . ولن أنسى شكلها المضحك ، وهي تنظر اليّ بفضول .. وقد ظهر عليها الكبرياء والسرور ، وأنا التهم فطائرها التي بسطت عليها طبقة سميكة من البطاطس المهروس ، المحلى بالسكر أو المتبل بالبهار والبصل

الأخضر . وكنت استمرىء فطائر المطبخ الفقير ، أنا التي كنت ضعيفة قليلة الأكل ، يزجرني أهلي لهذا السبب .

كانت ميلي توحي اليّ بنوع من التأمل : فقوتها ونشاطها وجرأتها . . كل ذلك كان يدهشني . وكنت أحسدها لأنه في استطاعتها أن تجوب كل مكان ، وأنها لا تخاف من شيء .

كانت في بعض الأوقات تتصاعد منها رائحة العلف ، وقد تعلق بشعرها منه بعض القش ، فتجعلني أحلم بحياة الحرية ، بين الحقول التي كان يحياها روبنسون . ولما كنا نتأكد من وحدتنا في الحديقة ، كانت تتسلق الأشجار وتهز أغصانها فتمطرنا فاكهة ناضجة . . كما كانت تقتلع بقبضتي يديها ، الفاكهة الخضراء . . لأنها كانت تحبها وتؤكد لي أنها لذيذة . . وأردت أن أتشبه بها ولو من هذه الناحية . . فكنت آكل معها قضمة من التفاح الأخضر وغيره . وأذكر أني قلت لها يوماً : « إنّ أشجار الكرز عندنا تطرح متأخرة . . وهذا ما يؤسفني لأني أحب هذه الفاكهة » . وجاءتني في اليوم التالي وملء جونلتها كرزاً جميلاً ! إنها سرقته من بعض الحدائق . لقد سرقت من أجلي وعرّضت نفسها للهلاك !

وأول ما كانت ترى فرداً من القصر آتياً الى جهتنا — ما عدا خادمتي والطباخة فانهما صديقتاها — كانت تتوارى بشكل عجيب . . فلا أعلم كيف اختفت ، ولا من أي ثقب من السور خرجت .

وأحلى الأيام عند ميلي هي عندما كان يزورني صديقاتي الصغار ! كانت المسكينة تحوم حولي ، فأصر عليها دون أن أكلها أو أتظاهر أني أعرفها . . وعندها تختفي كئيبة . ثم شيء آخر كان يسبب لها الحزن : فعندما كان أبي يصحبني وأخي الى منزل لنا في الضاحية ، وسط عربة صغيرة ، كانت ميلي تتبعنا عن بعد . ولكن أبي كان يطردها بصوت خشن .

وحدث يوماً ، أنه عندما اقتربنا من العربة ، رأيت ميلي وقد تعفرت بالتراب ، وهي تخرج من حفرة كانت ممددة فيها ، لكي تراني حين مروري . . وكم كانت ترتعد من الخوف عندما رآها أبي . فقلت استعطفه :

« أبي ! أرجوك أن تتركها تمشي وراءنا . . وهل هذا يسبب لنا ضرراً » وقبل أن يتركها تمشي وراءنا . فكانت ميلي فرحة مسرورة ، وهي تتأثر حذاي كالكلب الأمين .

وكنت من وقت إلى آخر ، أمد يدي إلى الوراء ، فتأخذها بين يديها وتقبلها لحظة ، ثم أسحب يدي .

وبعد انتهاء العشاء ، تسللت خفية وأخذت كل ما وصلت إليه يدي من المأكولات وخرجت إلى ميلي . فوجدتها واقفة خلف الباب ، وأعطيتها ما معي فتقبلت ذلك مني بالفرح الشديد وهي تقول : « أوه ! يا آنستي ، يا آنستي ! »

ثم جعلت ألعب مع شقيقي تحت الأشجار التي تحيط العزبة . ولكنه تركني فجأة . وبعد قليل سمعت صراخاً ، فجريت إلى ناحية الصوت . ورأيت ميلي المسكينة ، أمام الاسطبل ، وقد تبللت حتى ركبتيها بالمياه التي كانت تتساقط من ذيل ثوبها ، فإن الولد الشرير غطسها قهراً في حوض البهائم ، الذي ملأته مياه الأمطار . وكانت ميلي تبكي وترتجف ، ولكنها حبست دموعها عندما رأتني ، فهي لا تريد إزعاجي . وقالت لي وهي تبتسم : « هذا لا شيء يا آنستي .. إنه يريد مداعبتي فقط .. »

* * *

وأراد أبي أن نقضي العيد في بيتنا الريفي .. وعلمت ميلي بذلك ، غير أنها لم تتأخر خطاي يوم وصولنا . ولكن كم دهشت وأنا أرى ميلي تنتظرني في حفرتها ، على حافة حقل الشعير وذاب قلبي شفقة عليها وأرسلت لها قبلة ... وللأسف إني مرضت في العيد ، ولزمت فراشي وكنت أسمع وأنا أتقلب في السرير ، ضجة الأصوات والضحكات فالأسرة مجتمعة لتناول طعام الغداء ، بمناسبة العيد .

ولكني لم أكن وحدي في الحجرة ، فهناك ميلي وقد خرجت من مخبئها ، بعد أن اطمأنت . وها هي تدس بين يدي أزهاراً ندية ، وقد ركعت بالقرب من سريري .. ووضعت جبينها على طرف سريري . وبعد لحظة ، أتى أبي ليراني .. ولكنه في ذلك اليوم ، لم يجد من الشجاعة ما يحمله يطرد ميلي ، بل إنه أمر أن يؤتى لها بالطعام .

* * *

وبعد مدة من الزمن ، رأت والدتي أن أتعلم كل ما يجب أن تتعلمه سيدة ربة بيت . فعهدت بي إلى الآنسة برجريت ، لتعلمني الحياكة وتدربني على الأعمال المنزلية . ولكني كنت أهوى شيئاً آخر : القراءة . ولحسن الحظ أن ميلي كانت قد توصلت أخيراً ، أن تجعل جميع من في القصر يحتملونها . فكانت تحضر دروسي ، وتعلمت قبلي بكثير رغبة منها في مساعدتي . وكانت هي التي تقوم بالأعمال الصغيرة ، التي يفرضونها علي ، كأن ترتب حجرتي .. بينما أكون أنا لاهية في القراءة . كنت أقرأ حياة القديسين وتاريخ رومانيا المكاتب

« رولان » ثم كتاب آخر لست أعلم الآن أنه مجلدة حمراء قديمة يحوي قصص القرن الثامن عشر . وعند ما كانت ميلي تنتهي من عملها ، كنت أقص عليها ما قرأت ، مكافأة لها . فتسمع الي وقد جلست على الأرض عند قدمي ، وثبتت عينيها على وجهي ، وأذكر أن إحدى هذه القصص ، كانت تبتدىء بهذه الجملة : في زمن حيث كانت مدام دو بومبادور ، تسود فرنسا » . ولست أعلم كيف كانت مدام دو بومبادور ، تبدو لميلي . ولا لي أنا نفسي . انما أذكر انها كانت قصة جميلة .

***

ومرت أيام ثم مرضت بالجدري . وأذكر الآن ميلي التي لم تفارقني طول مدة مرضي . فهي التي تصنع لي الشراب ، وهي التي تأخذ يدي بين يديها برفق ، ولكن بكل قوتها لتمنعني من كحط جلد وجهي ، فقد قيل لها : اني لو أكحط وجهي صرت بشعة الخلقة . وهي تسهر على جانبي كما يسهر الحريص على كنزه .

لقد فعلوا كل شيء لابعادها عني خوفاً عليها من العدوى ولكنهم لم يفلحوا واستمرت ميلي لا تفارقني لحظة . وعندما تحسنت صحتي ، وكنا في شهر ابريل ، فكانت ميلي تجلب لي كل يوم ملء ذراعيها من الأزهار الجميلة ، وكنت في هذه الفترة ، أجد صعوبة في استذكار الماضي . فأسأل ميلي : « أيمكن لك أن تقصي علي تلك القصص التي روجها لي ؟ فقد حرموا علي القراءة » . فتقص علي جميع القصص التي سمعتها مني .

***

وذات يوم ، لم تحضر ميلي ، وكان أول يوم سمح لي فيه بمفارقة الفراش . فسألت عنها أمي بالحاح .. وأخبرتني أنها مريضة ، وفي اليوم التالي نقلوني الى الريف . والتف حولي الجميع يبحثون عما يسرني ويسليني وكان أبي يصرف الساعات الطويلة ، بالقرب مني ويصحبني في نزهات جميلة . غير اني لم أنس ميلي . فكنت أسأل عنها من وقت الى آخر . وقال لي أبي أخيراً : « ميلي مريضة جداً . ولكني أوصلت اليها الطبيب وكل ما يلزم لعلاجها . وسوف ترينها متى شفيت » .

ولكن مرت الأيام ولم تأت ميلي . وقلت يوماً لامي : كيف حال ميلي ؟ أريد أن أعلم » فأجابت أمي بحزن : « لقد ماتت ميلي ! » وتولاني الذهول . ثم قلت والدموع ملء عيني : « مسكينة ميلي ! سوف لا أراها . ولكني سوف لا أنساها ! » .

تلك هي ميلي ! المخلوقة التي أحبتني . والتي أذكرها على الدوام !